موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

# هَلْ تُؤْمِنُ الْمَسِيحِيَّةُ بِإِلهٍ وَاحِدٍ؟

www.coptology.com

# هل تؤمن المسيحية بإله واحد؟

دكتور

**جورج حبيب باوي**

٢٠٠٨

www.coptology.org

-١-

# "نؤمن بإله واحد"

هناك سؤال يتردد دائماً على لسان غير المسيحيين: هل تؤمن المسيحية بإله واحد؟

الإجابة واضحة جداً، نعم؛ لأن قانون الإيمان، وهو صيغة الاعتراف بالإيمان، يبدأ بعبارة لا لبس فيها ولا غموض:

"نؤمن باله واحد ...".

وهذا يعني أن غير العقلاء فقط هم الذين يشُكُّون في أن المسيحية هي ديانة توحيد.

## لماذا يسأل الناس عن التوحيد في المسيحية؟

والجواب هو أن للتوحيد عدة معاني، بل هو عدة أنواع وأشكال. وعبارة "الله واحد" ليست عبارة بسيطة لها معنى واحد، بل لها عدة معاني .. فإذا تعددت كلمة واحد .. تعددت معاني التوحيد ...

## المعاني المختلفة لكلمة "واحد"

الفعل الثلاثي "وَحَّدَ" يعني "التفرد"، ولذلك نقول: جاء وحده .. أي انفرد بالمجيء. أو نقول: خذ هذا الكتاب وحده ... لا تأخذ غيره.

في هذا المجال يبرز أحد معاني التوحيد الهامة جداً والتي يعبِّر عنها الكتاب

المقدس بكل وضوح "لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ" (متى ٤: ١٠)، أي لا تعبد آخر مع الله .. وعلى هذه الحقيقة الواضحة لا يختلف أحد.

إذاً "الله واحد" بمعنى أنه لا ثان له، وأنه هو وحده الذي ينفرد بالربوبية .. وبهذا الشكل قد يبدو أن الموضوع قد انتهى ولا حاجة لنا بالبحث، غير أن الواقع هو العكس. فالتوحيد يبدأ بحثه من هذه النقطة، أي تأكيد وحدانية الله وتفرده .. فليس هذا هو التوحيد، بل نقطة البداية في الكلام عن الله الواحد.

-٢-

# كيف يعرض الكتاب المقدس الإيمان بالله الواحد؟

يتميز الكتاب المقدس بأسلوب فريد دقيق، بل بأسلوب خاص به دون غيره، فهو عندما يتكلم عن الله الواحد يضع عدة أوصاف هامة لهذا الواحد. والمجال لا يسمح باقتباس كل النصوص وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعض النصوص: يقول الله على لسان إشعياء: "أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلَهَ سِوَايَ. ... مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَمِنْ مَغْرِبِهَا أَنْ لَيْسَ غَيْرِي. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ" (إشعياء ٤٥: ٦، ١٨). ولعل إصحاح ٤٥ من سفر إشعياء هو إصحاح التوحيد، فهو يتحدث عن الإله الواحد بكل وضوح ويعلن هذا الإله الواحد بشكل لا يحتمل الشك.

النقطة الهامة في الكتاب المقدس هي أن الأنبياء عندما يتكلمون عن الإله الواحد، فهم يعلنون عن هذه الحقيقة بالشكل التالي: الله الواحد هو الإله الخالق، ولذلك لا يجوز الكلام عن خالق آخر. وكلمة "واحد" هنا ذات مضمون مطلق، بل هي كلمة الحق، يقول أيوب: "الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ ..." (أي ٩: ٨). وفي أغلب نصوص الكتاب تأتي كلمة "واحد" لتأكيد أن الخالق هو الله وحده.

الله الواحد هو الإله المخلِّص الذي لا يجب أن يترجى الإنسان غيره. يقول إشعياء: "وَالآنَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُنَا خَلِّصْنَا مِنْ يَدِهِ فَتَعْلَمَ مَمَالِكُ الأَرْضِ كُلِّهَا أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ" (أش ٣٧: ٢٠). **فالخلاص – مثل الخلق – هو عمل الإله الواحد** الذي لا يمكن أن يشترك فيه آخر، ولذلك يقول الله نفسه بفم إشعياء: "اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ

وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ لأَنِّي أَنَا اللَّهُ وَلَيْسَ آخَرَ" (أش ٤٥: ٢٢). ويقول المزمور: "اَللهُ لَنَا إِلَهُ خَلاَصٍ" (مز ٦٨: ٢٠)، أو: "قُوَّتِي وَتَرَنُّمِي الرَّبُّ وَقَدْ صَارَ لِي خَلاَصاً" (مز ١١٨: ١٤). ولا يمكن أن نحصي النصوص التي تؤكد أن الخلاص بالله وحده، أو أن الله هو خلاص الإنسان، فهذا هو أحد الموضوعات الرئيسية لسفر المزامير (مز ٥: ٥ – ٢٧: ١ ، ٩ – ٤٠: ١٤).

الله واحد بمعنى أنه لا تجوز الصلاة أو طلب المعونة أو العبادة أو السجود لغيره. وهنا كلمة "واحد" هي جوهر كل الكلام عن عبادة الإله الواحد. وفي نص طويل جداً يقول إشعياء: "لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللَّهُ. مُصَوِّرُ الأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلاً. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ... اِجْتَمِعُوا وَهَلُمُّوا تَقَدَّمُوا مَعاً أَيُّهَا النَّاجُونَ مِنَ الأُمَمِ. لاَ يَعْلَمُ الْحَامِلُونَ خَشَبَ صَنَمِهِمْ وَالْمُصَلُّونَ إِلَى إِلَهٍ لاَ يُخَلِّصُ" (أش ٤٥: ١٨ – ٢٠).

هذه النقطة في غاية الأهمية والدقة لأنها تحدد أن الكلام عن التوحيد ليس إثارة مسألة فلسفية أو تأكيد مبدأ عقيم، بل توحيد **الخالق** سبحانه، وتوحيد **المخلِّص** الذي لا آخر سواه. هنا نقول لا إله إلاَّ الرب، ولا إله إلاَّ الله، أو كما نقول في قانون الإيمان "نؤمن بإله واحد .. خالق السموات والأرض". التوحيد إذاً ليس معلقاً في فراغ، بل هو مرتبط بالإيمان بإله واحد معروف **كخالق وكمخلص**.

-٣-

# الجوانب الضعيفة لكلمة "واحد"

كلمة "واحد" كلمة اخترعها الإنسان، وهي لا تأتي بصيغة المذكر فقط، بل تأتي بصيغة المؤنث أيضاً ومنها كلمة "واحدة". وطبعاً نحن لا نستخدم صيغة المؤنث لله؛ لأن الله ليس مؤنثاً وليس مذكراً أيضاً، بل هو فوق كل هذه الأوصاف. ولكن - كما نرى - فإن الكلام عن "الواحد" وعن "الواحدة" يعني في الحقيقة أننا نتكلم بلغة الإنسان، وهي ليست أداة كاملة في حد ذاتها، فعلى الرغم من أن الله ليس مذكراً ولا مؤنثاً إلاَّ أننا لا نملك في اللغة العربية إلاَّ صيغة المذكر والمؤنث .. وهذا يعني أن الكلام عن الله محدود بحدود اللغة الإنسانية، وهي ليست دقيقة دائماً. ولعل أفضل مثال على ضعف كلمة واحد هو ما يلي:

١- "الواحد" حسابياً هو كمٌ محدود. فالواحد الصحيح هو كم محدود، ولذلك لا يمكن أن يكون الله واحداً بالتعبير الحسابي، فالله ليس كماً وليس محدوداً.

٢- و"الواحد" هو جزء من جملة كثيرة تشاركه نفس النوع مثل: هذا كتاب واحد من ضمن كتب كثيرة. فالكتاب جزء من نوع هو الكتب .. ولذلك الله ليس واحداً بهذا المعنى، فهو ليس إلهاً ضمن آلهة.

٣- و"الواحد" فردٌ من جنس مثل: هذا واحدٌ من الناس. وهذه العبارة تعني أننا نتكلم عن واحد وهو فرد من ضمن جماعة من الناس ... ولا يمكن أن يكون الله واحداً في هذا الإطار بمعنى أنه واحدٌ ضمن جنس اسمه الآلهة.

٤- و"الواحد" هو الذي لا يتبدل وإن تكرر وتعددت أفراده، ولعل أفضل مثال هو قول بني إسرائيل لموسى: "يا موسى لن نصبر على طعام واحد" (البقرة: ٦١). ولذلك ليس الله واحداً من هذه الزاوية أيضاً، فالله ليس مثل الطعام المتعدد الأنواع الذي إذا تكرر وُصِفَ بأنه صنف واحد.

كل هذه الاستعمالات وغيرها تؤكد لنا ليس فقط ضعف اللغة الإنسانية - مهما كانت - سواء أكانت العربية أم غيرها من اللغات الأخرى، وإنما تؤكد أن الكلام عن التوحيد تحوطه مشاكل هو أيضاً؛ لأن كل موضوع يتناوله العقل البشري لا يمكن وصفه بشكل كامل ودقيق، وإنما يظل سوء الاستعمال وعجز اللغة يرافقه.

## جوانب الضعف في كلمة "واحد" وشكل التوحيد

إذا كانت المعاني السابقة لا يمكن أن تنطبق على الله، فالله ليس "كمًّاً حسابياً"، ولا هو واحدٌ كفردٍ من جنس، ولا هو واحدٌ مكرر، ولا هو جزءٌ من جملة .. هذه الجوانب الضعيفة لكلمة واحد هي ضد التوحيد على خط مستقيم، فعلى الرغم من أن كلمة "واحد" تعني التفرد كما ذكرنا سابقاً، إلاَّ أنها تعني أيضاً المعاني الأربعة التي لا يمكن أن ينطبق على الله.

## أشكال أخرى مرفوضة لكلمة "واحد"

أولاً: ليس الله واحدٌ بمعنى أنه مجهول. نحن نقول: "واحدٌ من الناس"، وهذا يعني أننا لا نريد أن نعلن اسمه أو نعلن شيئاً عن شخصيته .. ولعل أفضل مثال هو تصرف المسيح له المجد ليلة آلامه عندما قال: "أَلَيْسَ أَنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمْ الِاثْنَيْ عَشَرَ؟ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!" (يوحنا ٦: ٧١)، وطبعاً "الواحد" هنا مجهول للتلاميذ تماماً.

ثانياً: وليس الله واحدٌ بمعنى أنه الأول الذي يليه غيره. ومثال واضح هو ما يقوله سفر التكوين: "وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْماً وَاحِداً" (تك ١: ٥)، فالواحد

هنا هو الأول الذي يليه عدةٌ قد يكونون مثله مثل أيام الخليقة الستة، أو يختلفون عنه مثل اختلاف الأشخاص من البشر.

ثالثاً: وليس الله واحدٌ بمعنى أنه نقطةُ التقاءٍ واحدة في الزمان أو المكان، فالمكان المعين أو الزمان المعين يوصف بالواحد، ومثال على ذلك ما يقوله سفر التكوين عن المسجونان اللذان سُجنا مع يوسف: "وَحَلُمَا كِلاَهُمَا حُلْماً فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ" (تك ٤٠: ٥)، وهذا يعني نفس الليلة، فهو نوع من التعيين لا يمكن استخدامه لله لأننا لا نملك أن نشير إلى الله كما نشير إلى مكان أو زمان أو شيء ونقول عنه إنه واحد.

## أنواع مرفوضة للتوحيد

طالما أننا تأكدنا من أن كلمة "واحد" متعددة المعاني بعضها ضعيف وبعضها لا يصلح للكلام عن الله، فإن هذا يؤكد لنا أن الإنسان يمكن أن يختار عدة أنواع للتوحيد، أو أن يختار نوعاً معيناً من التوحيد.

**التوحيد المجهول**

وهو استعمال كلمة واحدة للدلالة على أن الله واحد غير معروف.

**التوحيد المحدود**

وهو اعتبار أنَّ الله واحدٌ مكرراً، أو واحدٌ حسابياً أو الأول الذي يليه آخر.

– ٤ –

# الجوانب القوية لكلمة "واحد"
# وعلاقتها بعقيدة التوحيد

على الرغم من أن كلمة "واحد" من الكلمات الضعيفة في اللغات البشرية .. إلاَّ أنَّ لها جانبها الايجابي. هذا الجانب الايجابي يضعنا أمام التوحيد المسيحي بكل ما فيه من ايجابيات.

## أولاً: كلمة "واحد" تعبِّر عن الوحدة

يقول سفر التكوين عن آدم وحواء: "لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً" (تك ٢: ٢٤). وهنا كما نرى، "الواحد" هو في الواقع وحدة قائمة على اتحاد اثنين. و"الواحد" هنا، وهو الجسد، هو الحياة المشتركة بين شخصين، الثنائية بينهما هي قاعدة الوحدة، فهما اثنان، ولكنهما واحدٌ. وقوة كلام سفر التكوين ظاهرة "وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً"، أو يصيران جسداً واحداً. هذه الصيرورة هي الاتحاد، والاتحاد لا يلغي بالمرة الثنائية، ولكنه يحول الثنائية إلى وحدانية، وتظل الثنائية قائمة ولكن في إطار وحدانية.

ونفس الكلام ينطبق على الكنيسة، فهي توصف بأنها "جسدُ المسيح الواحد" (راجع ١ كور ١٢: ٤ و ١٢). وهذا الجسد الواحد يعني أيضاً الوحدة والحياة المشتركة بين عدة أشخاص، فهم عدة أو تعدد، ولكن هذا التعدد تجمعه الوحدة، وهو

ما يعبِّر عنه سفر الأعمال: "وَجَمِيعُ الَّذِينَ آمَنُوا كَانُوا مَعاً ... وَكَانُوا كُلَّ يَوْمٍ يُواظِبُونَ فِي الْهَيْكَلِ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ" (أع ٢: ٤٤ – ٤٦).

إذاً، التعدد قائم، وهو ما تعبِّر عنه كلمة "كانوا"، ولكن الوحدة قائمة، وهو ما تعبِّر عنه عبارة قوية جداً "كَانُوا مَعاً ... نَفْسٍ وَاحِدَةٍ". وهذا يعني أن التعدد لا يعني مطلقاً التناحر والتشاحن، وإنما استخدام هذا التعدد في خلق وحدة.

حقيقي أن الذي خلق الوحدة في الكنيسة هو المسيح، فهو العنصر المشترك بين المؤمنين، ولكنه عنصرٌ لا يعمل إلاَّ في الائتلاف والتوافق، وكلما كانت الكنيسة قلباً واحداً ونفساً واحدة كلما استطاعت أن تفهم أن الوحدانية قوة.

## ثانياً: كلمة "واحد" في عالم الأشخاص

يؤكد الكتاب المقدس أن البشر جميعاً خُلقوا من عنصر واحد، وهو ما نسميه بالطبيعة الإنسانية، أو حسب تعبير سفر الأعمال: "وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ" (أع ١٧: ٢٦). هذا الدم الواحد هو الحياة الإنسانية، الجسد والروح اللذان يوجدان بشكل واحد في كل الناس .. ولكن الطبيعة الإنسانية الواحدة لا تلغي وجود تعدد وتمايز بل واختلافات في شخصيات البشر.

وفي هذا السياق نجد أن تعبير القرآن واضح جداً: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة" (النساء: ١). إذاً الوحدة أو الواحد يمكن أن يضم العنصر المشترك الواحد الذي يملكه عدة أشخاص يختلفون كأشخاص، ولكنهم يتَّحدون في الطبيعة. وهذا هو سر تماسك الإنسانية. ورغم الصراعات، فإن الطبيعة الإنسانية الواحدة هي مصدر الوحي والإلهام في كل العصور للدعوة إلى الوحدة والسلام.

– ٥ –

# ماذا نعني بالله الواحد؟

لقد اقتربنا كثيراً من كلمة "واحد" في معناها القوي الواضح في عالم الأشخاص.

لذا يمكننا أن نقرر أن الله الواحد لا يمكن أن يكون واحداً في صفاته، وذلك قياساً على أنَّ تعدد الصفات هو أحد مقومات الشخصية. وإذا كنَّا نقارن هنا بين الإنسان والله، وطالما أننا نتحدث عن الله بلغة البشر ومع البشر، فالحديث إذن يجب أن يظل في دائرة الفهم البشري والإدراك البشري.

إذاً، لا يمكن أن يكون الله واحداً في صفاته، بل واحدٌ في ذاته، وذاته هنا وحدة تجمع صفات القوة والحكمة والمعرفة والقداسة والمحبة .. الخ. هذه صفات متعددة في ذات الله الواحد. وهذا ما نعنيه بكلمة "واحد" عندما نقول إننا نؤمن بإله واحد.

-٦-

# الجانب السلبي والجانب الايجابي للتوحيد

الله ذاتٌ واحدةٌ متعددة الصفات، ذلك هو الجانب الايجابي في التوحيد. ولكن قبل أن نعرض للجانب الإيجابي يلزمنا أن نلقي نظرة على الجانب السلبي.

## الجانب السلبي للتوحيد

كما نعرف من الكتاب المقدس، نشأت الوثنية جنباً إلى جنب مع التوحيد، ومع وجود تعدد للآلهة أو الشِّرك، أصبحت عبارة أن "الله واحد" من العبارات الأساسية جداً التي لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان. ولذلك وفي مواجهة الآلهة الوثنية يقول سفر التثنية: "الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ" (تثنية ٦: ٤). ونشأت الصيغة "ليس آخر" لتدعم التوحيد ولكي تقضي على الشرك، فليس من آخر بجانب الله يشاركه الربوبية أو الألوهة، فـــ "الله الواحد" هنا بمعناها السلبي، أي في صيغة النفي تؤكد نقاء الإيمان ونقاء الحياة نفسها من الشرك.

واليهود يقولون دائماً تلك الصيغة المعروفة في التاريخ اليهودي باسم "الشِّمَع" وهي مثل قانون الإيمان في الكنيسة "إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ". وجميع الأنبياء في عصور اشتداد الوثنية كانوا يهتفون دائماً بنداء النبوة "لا إله إلاَّ الله .. الرب إلهنا واحد، الرب هو الله وليس آخر ...".

فالجانب السلبي، أي النفي هو مقاومة للخطأ الرهيب الذي نشأ في حياة الإنسان. وفي كل مرة نقول فيها لا اله إلاَّ الله، فنحن ننفي الألوهة عن كل كائن

مهما كان .. وعبارة "الله واحد" كما جاءت في الكتاب المقدس، تحمل هذا الجانب السلبي الأساسي. ولكن كما رأينا أن الجوانب السلبية والضعيفة كثيرة جداً، وقد ذكرنا في البداية أن الجانب الحسابي هو أضعفها، فهل يمكن تطبيق بعض الجوانب الايجابية الخاصة بكلمة "واحد"؟

المسيحية تقول: نعم.

## الجانب الايجابي للتوحيد

الله هو أكبر موضوع في حياة الإنسان، ومهما انشغل الإنسان بما عنده، فالله أكبر من كل المشاغل والأفكار والاهتمامات، ولذلك لا يمكن بل لا ينبغي أن نقف عند أعظم موضوع في حياة الإنسان وهو الله، لا ينبغي أن نقف عند الجانب السلبي؛ لأن هذا معناه أن يصبح التوحيد عندنا ليس سلبياً فقط بل غامضاً أيضاً.

لا يكفي أن نقول إنه لا إله إلاَّ الله، أو لا إله سوى الرب ... لا يكفي أن ننكر الشرك وتعدد الآلهة وأخطاء الإنسان كلها، بل يجب أن نقدم ما هو ايجابي أيضاً. لقد أعان الله الإنسان وقدَّم له الجوانب الايجابية كمعونة من عنده.

### "أنا الرب"

إنَّ أعظم ما نطق به الله في إطار الإعلان عن نفسه هو كلمة "أنا"، فهي لا تؤكِّد الوجود والحضور فقط، بل تعلن الله. وفي عدة مناسبات ظهر الله بشكل منظور، لعل أعظم هذه الظهورات هو ظهوره لموسى النبي في سيناء "أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ" (خر ٣: ٦). ولعبارة "أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ" تاريخ طويل، فهي تؤكد معنى ظهور الله لإبراهيم في سفر التكوين، أو بمعنى آخر .. "أنا الرب" تعني أنا إله المواعيد.

التوحيد ايجابياً هو أن يعلن الله عن نفسه، وأن لا يأتي هذا الإعلان عن نفسه

كواحد، بل يكلمه "أنا". وإذا كان صحيحٌ أن كلمة "أنا" كلمة إنسانية يمكن أن يقولها أصغر إنسان .. ولكن الإنسان الحق يعرف أن كلمة "أنا" إنما هي شرارة للوجود الإلهي .. "أنا الرب.."، ولذلك فكلمة "أنا" لا تحمل فقط إعلان الله عن ذاته، بل تؤكد أيضاً ارتباطه بالمواعيد التي قطعها للإنسان لا سيما لإبراهيم.

وفي كل مرة قال الله فيها: "أنا" كان يؤكد أنه دخل تاريخ الإنسان وأنه ليس واحداً فقط، بل متى قال: "أنا"، كان يعني المواعيد. لقد ذكرنا في المقدمة أنَّ "الواحد" تؤكد أنْ يطلب الإنسان الخلاص من الله. وهنا تؤكد كلمة "أنا" وتعني حضور الله للخلاص. فهو لا يسكت وإنما أمام كل مشاكل الإنسان ومخاوفه يقول لنا دائماً "أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا" (إشعياء ٤٣: ٢٥).

ثم ماذا يقول: "وَالآنَ اسْمَعْ يَا يَعْقُوبُ عَبْدِي ... هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ صَانِعُكَ وَجَابِلُكَ مِنَ الرَّحِمِ مُعِينُكَ: لاَ تَخَفْ ... لأَنِّي أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ. أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى نَسْلِكَ وَبَرَكَتِي عَلَى ذُرِّيَّتِكَ... هَذَا يَقُولُ: أَنَا لِلرَّبِّ وَهَذَا يُكَنِّي بِاسْمِ يَعْقُوبَ" (إشعياء ٤٤: ١ – ٥).

وحتى في إعانة الإنسان على السلوك الأخلاقي الذي يلتزم بالعهد، يقول الله في بداية الوصايا العشر: "أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي" (خر ٢٠: ١ – ٣). فالله لا يقول "أنا" بشكل مجرد، بل يقول "أنا" في مضمون الخلاص، ولذلك يذّكر بني إسرائيل بالخلاص من أرض مصر من بيت العبودية. هنا "أنا" تعني "المخلِّص" وهنا "أنا" تعني الواحد، ولذلك يقول الرب: "لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي"؛ لأنك لم تعرف مخلصاً آخر سواي، ولذلك "أنا" تؤكد أن الله لا يعلن حضوره فقط، بل يعلن حضوره كمخلص وكفادي. هنا التوحيد ليس قضية العقل، بل اختبار الإيمان بالله كمخلص هو وحده القادر، ولذلك يمكننا أن نرى بكل وضوح أن وحدانية الله ليست مسألة تناقش عقلياً

ويبرهن عليها الإنسان بما يراه في الطبيعة من مظاهر تدل على الخالق، بل اختبار يتذوق الإنسان فيه اختبار الخلاص.

## الله وحده، أو الله واحد = الله مخلص

وهذا هو ما نعنيه بالتوحيد الايجابي، وهو توحيد يأخذ عدة تشبيهات ايجابية يصبح فيها الواحد معروفاً بشكل أو بإعلان واضح ليس في ظهورات إلهية فقط، بل بما يأخذه الله من مفردات في اللغة الإنسانية. ولعل أهمها هي الله الواحد هو الأب – الزوج – الراعي. وهذه التشبيهات قد تأتي متفرقة في كتابات الأنبياء أو تحتل سفراً كاملاً مثل صورة الله كزوج يعود إلى زوجته الخائنة في سفر هوشع. ولكن ماذا تعني هذه التشبيهات؟

### الأب

الأب تعني المصدر أو الأصل، ولذلك يقول سفر أيوب "هَلْ لِلْمَطَرِ أَبٌ وَمَنْ وَلَدَ مَآجِلَ الطَّلِّ؟" (أي ٣٨: ٢٨). والسؤال عن مصدر المياه كما هو واضح، ولذلك يمضي الله ليقول لأيوب: "مِنْ بَطْنِ مَنْ خَرَجَ الْجَلِيدُ؟ صَقِيعُ السَّمَاءِ مَنْ وَلَدَهُ؟" (أي ٣٨: ٢٩)، ولذلك كل الكلام عن أبوة الله للإنسان تؤكد أن الله هو سبب وجود الإنسان في هذه الحياة.

وكما يدافع الأب عن أولاده هكذا يؤكد الله أنه "أَبُو الْيَتَامَى وَقَاضِي الأَرَامِلِ" (مز ٦٨: ٥)، وأنه سوف يعيد الشعب من السبي "هَئَنَذَا آتِي بِهِمْ مِنْ أَرْضِ الشِّمَالِ وَأَجْمَعُهُمْ مِنْ أَطْرَافِ الأَرْضِ... بِالْبُكَاءِ يَأْتُونَ وَبِالتَّضَرُّعَاتِ أَقُودُهُمْ. أُسَيِّرُهُمْ إِلَى أَنْهَارِ مَاءٍ فِي طَرِيقٍ مُسْتَقِيمَةٍ لاَ يَعْثُرُونَ فِيهَا. لأَنِّي صِرْتُ لإِسْرَائِيلَ أَباً وَأَفْرَايِمُ هُوَ بِكْرِي" (أرميا ٣١: ٨ – ٩). وتدخل هذه العلاقة الصلاة وعبادة الله، ولذلك يوجِّه النبي أنظار العصاة والمتمردين "الاِبْنُ يُكْرِمُ أَبَاهُ وَالْعَبْدُ يُكْرِمُ سَيِّدَهُ. فَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَباً

فَأَيْنَ كَرَامَتِي؟" (ملاخي ١: ٦)، ولذلك يدخل هذا التشبيه دائرة العلاقة بين الإنسان والله، وهو ليس مجرد تشبيه، بل تشبيه يؤكد وجود علاقة ويدفع هذه العلاقة إلى اتجاه واضح وهو احترام الإنسان المطلق لله، وهو احترام يُعدُّ احترام الأب مثالاً له .. وهذا يعني أن وحدانية الله علاقة وليست نظرية أو مجرد فكرة، ولعل هذا يتضح بشكل واضح من كلام ملاخي النبي: "أَلَيْسَ أَبٌ وَاحِدٌ لِكُلِّنَا؟ أَلَيْسَ إِلَهٌ وَاحِدٌ خَلَقَنَا؟ فَلِمَاذَا نَغْدُرُ الرَّجُلُ بِأَخِيهِ لِتَدْنِيسِ عَهْدِ آبَائِنَا؟" (مل ٢: ١٠). وكما نرى بكل وضوح أن أبوة الله تعني المساواة بين البشر لأن الكل إنما يعود إلى مصدر واحد وخالق واحد وهو الله، ومن هنا نرى أن الغدر هو الخطيئة ضد الإيمان بوحدانية الله، ولكن الغدر يصبح خطيئة فقط في حالة واحدة، وهي الإيمان بالله كأب واحد لكل الجنس البشري وكحافظ للعهد.

التوحيد هنا يدخل مجال العلاقات الإنسانية، لا لكي يحمي الإنسان من غدر أخيه الإنسان، بل لكي يؤكد المساواة طالما أن الله هو خالق الكل. ولعل أفضل النصوص المقدسة عن أبوة الله هي صراخ إشعياء لله: "تَطَلَّعْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَانْظُرْ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِكَ وَمَجْدِكَ. أَيْنَ غَيْرَتُكَ وَجَبَرُوتُكَ؟ زَفِيرُ أَحْشَائِكَ وَمَرَاحِمُكَ نَحْوِي امْتَنَعَتْ. فَإِنَّكَ أَنْتَ أَبُونَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْنَا إِبْرَاهِيمُ وَإِنْ لَمْ يَدْرِنَا إِسْرَائِيلُ. أَنْتَ يَا رَبُّ أَبُونَا وَلِيُّنَا مُنْذُ الأَبَدِ اسْمُكَ" (أش ٦٣: ١٥ – ١٦). فالله هو الأب الحقيقي الذي يعرف أولاده وليس إبراهيم أو يعقوب لأنهما لا يعرفان من الذي سيأتي. وأبوة الله الواحد هنا تعني أن العلاقة به لا تعتمد على التوالد الجسدي أو الجانب العرقي، بل الإيمان به كمصدر للحياة.

يمكننا أن نلاحظ أن أبوة الله هنا تؤكد أنه الفادي أو المخلِّص الذي يشتاق لأولاده ويفتقدهم هذا هو التوحيد الصحيح (راجع إشعياء ٦٤: ٨).

## الزوج

وخلف هذا التشبيه نجد علاقة العهد بين الله والإنسان، فقد صارت الإنسانية في إبراهيم في عهد مع الله، وهو عهد يجعل الإنسانية أمينة ووفية مثل الزوجة. ورغم أن الله يتحدث عن نفسه كثيراً، ويصف نفسه بأنه إله غيور، فالغيرة هنا تؤكد أنه مثل الزوج الذي لا يقبل أن تصبح زوجته زانية أي أن لا تصير لرجل آخر. وعلينا أن نلتفت إلى تعبيرات العهد القديم بنوع خاص حيث توصف العبادة الوثنية بأنها زنى "لاَ تَسْجُدُ لإِلَهٍ آخَرَ لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلَهٌ غَيُورٌ هُوَ. اِحْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ عَهْداً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ ... وَتَأْخُذُ مِنْ بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكَ فَتَزْنِي بَنَاتُهُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ وَيَجْعَلْنَ بَنِيكَ يَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ" (خر ٣٤: ١٤ – ١٦). ومن هنا جاء تعبير الأنبياء عن الزنا تحت الأشجار أي عبادة الأصنام على التلال المرتفعة وهي العبادة الكنعانية القديمة (أرميا ٣: ٦ – ٨ – هوشع ٦: ١٠). وعتاب الله للشعب هو عتاب قاس جداً "زَنُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا" (قضاة ٢: ١٧).

وهذا يعني أن العلاقة الوثيقة بين الله والإنسانية هي من القوة والمتانة بحيث أن دخول آلهة أخرى تعني على الفور الزنا الروحي "صَارَتِ الْقَرْيَةُ الأَمِينَةُ زَانِيَةً!" (إشعياء ١ : ٢١). وكل عابد أوثان هو زانٍ، ولذلك قال الرسول بولس: "لاَ تُخَالِطُوا الزُّنَاةَ" (١ كور ٥: ٩).

ما معنى التوحيد في هذه العلاقة؟

معناه المؤكد أن الله حاضر وحي ويلتفت إلى مواعيده التي قطعها ولا يقبل أن يدخل في هذه العلاقة إله آخر. لأنه مثل الزوج الذي يرعى زوجته، وهذا هو جوهر سفر هوشع الذي لم يعجب النقَّاد لأنهم ظنوا أن الله طلب من النبي حماية زانية، ولكنه طلب في الواقع "خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ!" (هو ١: ٢). وكل مَن يقرأ السفر بدقة يرى خلف مأساة هوشع وعودته إلى

زوجته الخائنة الصورة الحقيقية، وهي عودة الله إلى علاقته مع شعبه (هو ١: ١٠). ويتحول الرمز إلى حقيقة من عتاب الله "قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ ... حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا لِتَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا ..." (هو ٢: ١ – ١١). ويؤكد الله بعد ذلك أنه سوف يفضح شعبه كما يفضح الزوج زوجته أمام المعجبين بها (هو ١: ١١ – ١٣)، ولكنه يؤكد أن عودة الزانية إلى التوبة معناه عودة علاقة المحبة مثل علاقة أيام الصبا "كَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ" (هو ٢: ١٥). وهذا يعني أن الله لن يكون سيداً قاسياً، بل زوجاً حليماً كثير الرحمة "وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُولُ الرَّبُّ أَنَّكِ تَدْعِينَنِي رَجُلِي وَلاَ تَدْعِينَنِي بَعْدُ بَعْلِي" (هو ٢: ١٦)؛ لأن اسم البعل (السيد) سوف لا يكون هو جوهر العلاقة، بل المودة والرحمة.

هذه هي صورة التوحيد الصحيح، فهو ليس فكرة مجردة، بل حياة وعلاقة تأخذ من واقع حياة الإنسان علامات أو رموز تؤكد أن الله إنما يخدم الإنسانية ويرعاها ويعطف عليها في حالة التوبة.

التوحيد هنا مؤكَّد بشكل صارخ، فهو توحيد لا مجال فيه لإله آخر، إضافةً إلى أنه توحيد ظاهر ومعلن لا يوجد فيه أي مجال لعلاقة مبهمة أو علاقة غير واضحة، وهو كما سنراه في العهد الجديد أساس علاقة الزواج بين الله والكنيسة، وأساس تمسك الله بكنيسة واحدة وحيدة، وأساس تمسك الكنيسة بإله واحد هو الزوج الذي يعطف ويحب ويعود إلى إنقاذ زوجته ويعمل على توبتها إن زنت وراء آلهة أخرى (هو ٢: ٢١ – ٢٣).

الواحد هنا يُدرَك من خلال العلاقة ومن خلال العهد. وهنا الإدراك ليس إدراكاً عقلياً بل إدراكٌ من خلال ما يجود به الله من عطية الرحمة والمحبة. إنه ليس فقط توحيداً ايجابياً واضحاً يرى فيه الإنسان حقيقة الواحد، فإذا هو محب وكثير الرحمة، بل هو توحيد يعلن عن علاقة ويعطي المثل عليها من واقع الحياة الإنسانية نفسها في صورة

الزوج الذي لا يخون زوجته، بل ويطلب زوجته حتى وإن كانت خائنة لكي تعود إليه.

هذا هو التوحيد الحقيقي الذي تصف فيه كلمة "الواحد" حقيقة علاقة الله بنا، فهو ليس وصفاً لحقيقة الله في ذاته فقط، بل يتعدى هذا الوصف إلى حقيقة العلاقة نفسها، فلا خير في كلمة "واحد" إن كانت تصف الله في ذاته دون أن يتعدى هذا إلى وصف حقيقة علاقة الإنسان به. ولعل صورة الأب وصورة الزوج هي خير ما نراه عن التوحيد في شكله الحقيقي حيث الله الواحد هو الأب والزوج الواحد، وبذلك يصبح التوحيد علاقة وليس مجرد وصف مبهم لله.

## الراعي

إن ما ذكرناه عن الأب والزوج ينطبق بشكل واضح على الراعي، ولكن صورة الراعي تعطي جانباً جديداً في علاقة التوحيد. الله هو الراعي الذي يقود (هو ٤: ١٦)، فهو ليس مجرد إله واحد ساكن في السموات وساكت لا دخل له بما يحدث في التاريخ، بل هو الإله الواحد الراعي الذي يقود شعبه مثل قطيع في وسط الأزمات وفي أوقات السلام أيضاً (مزمور ٧٩: ١٣). والحديث عن الحماية وعن خيرات الله التي يقدمها للشعب تعني اهتمام الله باحتياجات الإنسانية (حزقيال ٣٤: ١٤).

والتوحيد هنا يتناول علاقة ديناميكية يكتشف فيها الإنسان حضور الله في التاريخ تماماً مثل الراعي الذي يقع على كتفيه مسئولية الرعاية من طعام وحماية وملجأ بجانب الاهتمام بالكبير والصغير والقوي والضعيف على حدٍّ سواء، وقد أبرز هذا الجانب بشكل واضح جداً حزقيال النبي، فهو سفر الراعي وهو سفر اهتمامات الله الواحد بشعبه بالضعيف والقوي والسمين والأعجف (حز ٣٤: ١٦).

ولعلنا ندرك من تتابع هذه الصور كيف يعطي الله رسالة لكل نبي، لا لكي

يؤكد لنا مجرد التوحيد، بل لكي يشرح لنا جوانب العلاقة بالإله الواحد الذي يهب الإنسانية خيرات ومراحم أبدية لأنه كواحدٍ، دخل في علاقة قوية ايجابية مع الإنسانية لكي يشرح لها حقيقة التوحيد.

-٧-

# هل التوحيد مجردُ نفيٍ للشرك وتعدُّد الآلهة؟

إن الله هو أعظم وأهم قضايا الحياة الإنسانية، وسيظل كذلك طالما كان الإنسان يهتم بالحياة الروحية. هذه القضية العظمى لا يمكن أن تظل في دائرة الجوانب السلبية من حياة الإنسان. وأول هذه الجوانب هو نفي الشرك وتعدد الآلهة. الله هو الحق والحق لا يمكن أن يكون نفياً لخطأ؛ لأن نفي الخطأ في حد ذاته ليس اكتشافاً للحق، إنما هو التصدي للخطأ.

هذه النقطة على قدر كبير من الأهمية؛ لأنها تحدد اتجاه الحياة والتعليم والحضارة.

الحياة ليست نفياً للخطأ، بل كل ما فيها - من الأمبيا، وهي أصغر الخلايا الحية إلى الإنسان - تقوم على وظائف الأعضاء التي لا تعمل وفق نظام سلبي، بل وفق تناسق بديع من أخذٍ وعطاء يؤدي إلى مظاهر الحياة في شكلها المعروف.

والحياة العقلية لم تكن مجرد نفي للأخطاء، والتاريخ شاهدُ عدلٍ على أن الإنسانَ يعيش من اجل اكتشاف الحق والوصول إلى قلب وجوهر الأشياء. وهذا هو سر تقدم العلوم الدائم؛ لأن العلم ليس نفياً للأخطاء، بل اكتشافٌ للحقائق وقوانين الحياة.

وفي مجال التعليم في أشكاله المختلفة الذي يبدأ من المنـــزل حتى الجامعة وما بعدها في مجالات الحياة المختلفة، لا يقف الإنسان مطلقاً عند نفي الأخطاء، بل يتقدم

دائماً إلى اكتشاف الحقائق. وليس التعليم نفياً لما يشيع في الحياة من خرافات وأخطاء، بل هو محاولات دائمة للتقدم والاكتشاف لجوانب الحقائق والوصول بالفكر والأنظمة السياسية والاجتماعية إلى أفضل وضع يحقق للإنسان التقدم. ونحن لا نتعلم تفاهات الأخطاء وبشاعتها، ولكننا نكتشف جمال الحق وايجابيات الحق، وبذلك نتمكن من الاستمتاع بالحياة وبالمشاركة في تقدمها، نأخذ منها ونقدم لها ولا نعيش مثل النباتات الطفيلية التي تتغذى على غيرها ولا تعطي أي شيء نافع، بل تتحول أحياناً إلى سموم أو معطلات.

إن تاريخ الحضارة نفسه يشهد بأن الإنسان يبحث عما هو ايجابي وإلاَّ تعذَّر عليه التقدم؛ لأن نفي الأخطاء لا يكفي مطلقاً لأن يؤسس الحضارة ولا يغني الثقافة، بل يصيب كل شيء بالعقم ويحول الحياة الإنسانية إلى مجموعة من السلبيات وإلى خوف من الأخطاء وهو ما يمنع الإنسانية من التطور.

ومن الواجب أن نسأل: ما علاقة كل هذا بالإيمان بالله؟

والجواب واضح جداً، وهو أن الإيمان بالله هو أعظم ما يحتل قلب الإنسان وضميره .. فبماذا يوحي الإيمان للإنسان؟ وماذا يعلمه؟ لقد علَّم الإيمانُ الإنسانَ الكثير من الايجابيات، ولم تكن الحضارات القديمة سوى حضارات انبثقت من داخل الحياة الدينية، ليس في مصر الفرعونية وحدها، بل في كل أرجاء العالم، ولا تزال هذه الحضارات هي أساس الحضارة المعاصرة التي وإن كان يبدو على سطحها أنها بعيدة تماماً عن تأثيرات العقيدة الدينية وإلهامها، إلاَّ أن النظرة الدقيقة تكشف لنا على الفور إن الصراعات النفسية والعقلية التي تجتاح العالم اليوم والجفاف الأخلاقي مصدره الرئيسي ما أصاب الحياة من عدم استقرار بسبب فقدان الإيمان بالله وبالخلود، وهما قدمان سارت عليهما الإنسانية رحلة التطور الطويلة.

ونحن هنا لا نناقش أهمية الإيمان بالله بالنسبة للحضارة، فهذا موضوع آخر،

ولكننا نسأل ماذا يوحي الإيمان للإنسان؟

إنه يوحي له بالبحث الدائم عن الله من أجل اكتشاف ذلك السر الذي يفوق كل إدراك ويعلو على كل تصور.

كان العهد القديم هو تاريخ ظهورات الله ابتداءً من آدم الذي كان أول مَن تحدَّث مع الله، إلى عمالقة مثل إبراهيم وموسى وداود وإشعياء .. الخ. كل هؤلاء شاهدوا شيئاً عن الله، ونالوا إما ظهورات مباشرة أو إدراكاً روحياً أو سمعوا كلمات الوحي المقدسة .. وكان هؤلاء بكل يقين ليسوا فقط شهود التوحيد، بل شهود على عهد الله وصدق مواعيده. ويعكس العهد القديم تطور الوعي الروحي منذ أن طُرِدَ آدم من الفردوس إلى أن تجلَّى الله للأنبياء وأعطاهم أن يعرفوه معرفة الحق. وعلينا أن ندرك أن قوة العهد القديم ليست في إنكار ونفي الشرك وتعدد الآلهة، بل في إعلانات الله الواضحة في الظهورات، وفي كلمات الأنبياء. هذا يمكن أن نترجمه إلى ما يلي:

لقد كانت الخطوة الأولى في التقدم هي: "لا إله غير الله .. أو لا إله إلاَّ الله". وكان ذلك في بداية الحياة الروحية الإنسانية لا سيما بعد السقوط وطرد الإنسان من حضرة الله، وهو ما جعل الإنسان يبحث عن خالقه وضلَّ السبيل، وسقط في الوثنية، وكان من الحتمي أن يبدأ الإيمان بهذه العبارة الواضحة التي تقتلع أول خطأ يقع فيه الإنسان عندما يخطو محاولاً الاقتراب من الله.

لذا كانت الخطوة الثانية في التقدم هي: "أنا الرب إلهك"، وهي روح الظهورات وطريق معرفة الله، ودخول الله في عهد جعله الضامن والمنفِّذ لهذا العهد إلى أن يتم إصلاح الإنسانية وتجديد الحياة؛ لكي يشرق الله من جديد بظهور أخير وأعظم من كل الظهورات السابقة، ويكشف عن معنى التوحيد وجوهره، وهو ما تحقق بشكلٍ واضحٍ في العهد الجديد الذي لم يكشف لنا عن سلبيات الشرك وتفاهة تعدد الآلهة فقط، بل كشف أيضاً عن المضمون الواضح للتوحيد.

ويمكننا أن نلاحظ بشكل واضح أن نفي الشرك، وهو نغمة واضحة في العهد القديم تخفت قليلاً، بل تكاد تنعدم في العهد الجديد، ذلك أن الحق أشرق واضحاً، وهو ما يدعو الإنسان ليس إلى تجنب الخطأ فقط، بل معانقة الحق والتمتع بما فيه من حياة وجمال.

وكل ما كتبناه يعبِّر عنه الرسول بولس بعبارة واحدة: "اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ" (عب ١: ١ – ٢). وهذا النص بالذات هو أساس الديانات المقارَنة، لأن الدين الذي لا يضعني على طريق المعرفة الايجابية بالله لا يمكن أن يكون ديناً صحيحاً مهما بدت عليه علامات الديانة، ومهما كان مستوى الحياة الأخلاقية التي يدعو إليها. هذه هي النقطة الحاسمة في موضوع التوحيد بدقته، فلا يكفي أن ندعو الناس إلى عبادة إلهٍ واحدٍ وترك الآلهة لأنها مزيفة، بل يجب أن ندعوهم إلى معرفة يقينية بهذا الإله الواحد تتعدى كل ما نذكره وكل ما نقاومه من أخطاء وإلاَّ فَقَدَ الدينُ مبرر وجوده، وتحول إلى عائق يوحي للإنسان بالخوف من الخطأ ويقيِّده عن البحث ويمنع تطوره.

وقد كان هذا مصير عقائد وديانات أصابها الجفاف والعقم لأنها اكتفت بالسلبيات ومقاومة الأخطاء ولم تحث أتباعها على البحث عن الحق وإتباعه. هنا تسقط الأقنعة المزيَّفة التي تقدمها الديانات عن الله. فالله الحق لا يمكن أن نقترب منه بشكل سلبي، بل نقترب منه ايجابياً وفي ضوء إعلاناته وظهوراته ومحاولاته هو أن يقترب منَّا، وأن يعلن عن نفسه في التاريخ. هذه الإعلانات تؤكد لنا أن التاريخ جزء من علاقة الله بالإنسان، أي أن التاريخ هو تاريخ علاقة الله والإنسان، أو هو تاريخ الله والإنسان، وسجل تطور وعي الإنسان بحضور الله في التاريخ ومحاولاته الدائمة للاقتراب من الإنسان.

**الخلاصة**

لقد درسنا الجوانب الضعيفة لكلمة "واحد"، وأثر هذه الجوانب في خلق أنواع مرفوضة للتوحيد، ثم درسنا الجوانب الايجابية وعلاقتها بعقيدة التوحيد وكيف ينتقل الإنسان إلى وعي مضمونٍ أعظم لكلمة "واحد" في مجالات الوحدة، وفي الكلام عن الأشخاص .. وقد ساعدنا كل هذا على اكتشاف الجانب الايجابي للتوحيد في المسيحية. وما يهمنا الآن أن ندرسه هو آثار عقيدة التوحيد في أشكالها السلبية والايجابية على الحياة الروحية للإنسان.

-٨-

# أنواع التوحيد المرفوض، وأثرها على الحياة الروحية

## التوحيد المجهول

وهو إيمانٌ بإله واحد ينكر فيه العقل البشري تعدد الآلهة والشِّرك. وهو توحيد الفلاسفة والعلماء من أصحاب المدارس الأخلاقية الذين يؤمنون بإله واحد، ولكنه إلهٌ مجهول لا يقيم علاقة مع الإنسان من أي نوع، ويكتفي الإنسان باحترامه والإقرار بوجوده، دون أن يساهم هذا الإيمان في خلق أي اتجاهات إنسانية روحية عند المؤمنين؛ لأن الله مجهول تماماً، رغم الإشارة إليه بكلمة "واحد". فالله – طبقاً لهذا النوع من التوحيد – بعيدٌ تماماً عن الإنسان. هذا النوع من الإيمان يجعل الإيمانَ عقيماً وهو لا يختلف عن الإلحاد في شيء، فالله بعيدٌ تماماً عن وعي الإنسان وحياته ولا يؤثر فيها مطلقاً. وتساهم الحياة الاجتماعية القائمة على التمييز المطلق بين السيد والعبد في تدعيم هذا النوع من الإيمان؛ لأن الحياة الاجتماعية تؤكد وجود هوة واسعة لا يمكن عبورها، فلا السيد يرغب في التنازل ولا العبد قادر على العبور أو حتى الدخول في حوار مع السيد.

هذا التوحيد عقيمٌ تماماً، وهو نتاج العقل البشري، ولذلك يعبِّر عنه الإنسان بأشكال شتَّى وفق درجة النضوج الإنساني. وفي أغلب مراحل هذا التوحيد تصبح

قضية الحرية الإنسانية من أدق الموضوعات، ذلك أن الجهل بالله يؤدي دائماً إلى التطرف في فهم الحرية على أنها بلا التزامات، وبالتالي تنقلب هذه الحرية إلى فوضى. أو يؤدي الجهل بالله إلى بروز أشكال من الديكتاتورية والقهر؛ لان الإنسانية تفقد المصدر الأول للحرية وينبوعها الأصيل وهو الله.

## التوحيد السلبي:

وفيه يعبِّر الإنسان – بشكل جزئي – عن الله ويجاهر بالإيمان به، ولكنه لا يؤكِّد أي شيء ايجابي، ويأخذ هذا التوحيد شكل معارضة حادة وعنيفة للشِّرك. هذا العنف يؤدي إلى عزل الله تماماً عن فكر الإنسان وحياته.

ولأن هذا التوحيد ينشأ في البيئات الوثنية، فهو دائم الحذر، لا يحاول الكلام عن الله بأي شكل إيجابي وغالباً ينكر على الإنسان أي صلة بالله سوى صلة العبودية، وهو مثل التوحيد المجهول يصرف الإنسان عن التفكير بالله، ويحصر انتباه الإنسان في البحث عن كل طرق تجنب الشرك. وغالباً يصوِّر هذا التوحيد الحياة بعد الموت على أنها استمرار للحياة على الأرض مع ضمان مطلق لكل ما يرغب فيه الإنسان من أنواع اللذات مهما كانت. وجوهر الحياة بعد الموت في إطار هذا التوحيد هو ابتعاد مطلق عن الله، لأن الله معروف بشكل سلبي، ولذلك ما يملأ حياة الإنسان بعد الموت ليس الله، وإنما اللذات.

ولأن التوحيد السلبي لا يقدِّم أي جانب إيجابي عن الله، لذلك يحرص على تأكيد حقيقة واحدة وهي أن الله أعلن أحكاماً ووصايا للإنسان، وطالما أن الله أعلن عن هذه الوصايا والأحكام و لم يعلن عن ذاته، تكتسب هذه الوصايا أهمية تعلو على كل شيء، وتصبح من الفرائض التي لا يمكن تطويرها.

هذا النوع من التوحيد على موعد مع المشاكل الاجتماعية، فهو يأخذ شكل

نظام قائم على أحكام وفرائض تتعارض من آن لآخر مع الحياة الاجتماعية. ولذلك يصبح التهديد الحقيقي لهذا التوحيد هو التطور الاجتماعي.

وغالباً ما يوحي هذا النوع من التوحيد بالسلوك الطفيلي إزاء التقدم والحضارة؛ لأنه قائم – كما ذكرنا – على السلبيات، وهو ما يجعل الإنسان يتقاعس عن السلوك الايجابي والتقديم والعطاء.

ولأن الله — في ظل هذا التوحيد – موضوعٌ يستحيل معرفته؛ باعتباره بعيد تماماً عن تاريخ الإنسان ولا يتدخل فيه ولا يعلن عن ذاته، بل يأخذ شكل السيد في المجتمعات البدائية، أي السيد الذي يعطي وصاياه وأوامره، ويعاقب من يتأخر عن تنفيذ الفرائض، لذا ففي ظل هذا التوحيد تنشأ دائماً كل أشكال القهر والتسلط، لأن الله حاكم بما أمر وليس حاضراً مشاركاً للإنسان. وطالما أن الله بعيد عن الإنسان أمكن لفكرة انفراد شخص واحد بالسلطة أن تنمو في ظل هذا التوحيد، وغالباً ما يأخذ أو يستلهم هذا الحاكم صورة الإله الذي يعبده. ولأن هذا التوحيد قائم على التناقض المطلق بين الله والإنسان، فهو بالتالي يؤكد – بشكل مباشر — على التناقض بين الحاكم والمحكوم والسيد والعبد. أي أنه ينعكس على تصرفات الإنسان.

والتوحيد السلبي يعطي للوحي قيمة مطلقة، في حين أن الوحي هو عبارة عن مرحلة واحدة مآلها أن تنتهي، ولذلك كل ما بين الإنسان والله هو الكلمة فقط. وقد ذاع هذا الشكل في أوساط المثقفين في أوروبا وهو ما أدَّى في النهاية إلى حذف الأسرار تماماً، باعتبار أن الاشتراك في الحياة الإلهية مستحيل. وطالما أنه توجد هوة واسعة بين الله والإنسان، فإن هذه الهوة تأخذ شكل التناقض بين قداسة الله وفساد الإنسان، ولذلك ينشأ في أحضان هذا التوحيد تشديد على ضرورة السلوك الأخلاقي ابتغاء مرضاة الله.

التوحيد السلبي خطرٌ يهدد الحضارة؛ لأنه منهج يعتمد على مقاومة الأخطاء

دون إمكانية اكتشاف الحق، ولذلك لا يوحي للإنسان بإمكانيات المغامرة بطلب الحق. ولعل في كلمة "السلبي" المفتاح لإدراك كل أسباب الكسل والتراخي التي تصيب الحياة الإنسانية، فالإنسان يكتفي بالابتعاد عن الأخطاء.

-٩-

# التوحيد الايجابي، وهو توحيد المسيحية

تنشأ الأشكال المرفوضة السابقة من وقت لآخر في أوساط المتدينين المسيحيين، ولكن لا يمكنها التعايش مطلقاً مع التوحيد الايجابي الذي يحرص على تأكيد إعلان الله لذاته. والتوحيد الايجابي هو توحيد العهد القديم الذي كَمُلَ في العهد الجديد، وهو قائم على تأكيد أن الله يعلن عن نفسه، وأنه يتنازل لكي يقيم علاقة بالإنسان. ويؤكد هذا التوحيد أن الله ذاتاً واحدةً لا مثيل لها، ولكن هذه الذات الواحدة يمكن وصفها وإدراك الكثير عنها؛ لأن الله الواحد له عدة صفات تمكِّن الإنسان – ليس فقط – من التعرف عليه، وإنما إقامة علاقة وثيقة به.

ولذلك يمتاز التوحيد الايجابي باهتمام حقيقي بالتاريخ ككل، فهو مجال مفتوح للتدخل الإلهي في شكل إعلانات أو ظهورات أو أعمال للخلاص. هذا الاهتمام بالتاريخ يشكِّل الجانب الأساسي في الصلوات، وفي الحوار الدائم غير المنقطع بين الله والإنسان، ورغم وجود الكتاب المقدس إلاَّ أن الله لا يصمت عندما يكتب آخر سفر فيه، بل هو دائم الحديث مع الإنسان يعلن له ذاته في الأسرار ويتحدث معه، فينشأ بجانب الكتاب المقدس أحاديث الله العامة مع البشرية عبر التاريخ، أو ما يسمى "بالتقليد". والتقليد هو خبرة البشر مع الله وتذوق دائم لحقيقة حضوره ..

ويهتم التوحيد الايجابي بدراسة طبيعة الإنسان وإمكانية وجود تشابه بين الإنسان والله، لذلك يحتل الإنسان المرتبة الثانية بعد الله مباشرة. وتصبح كل عقيدة

خاصة بالله متصلة بالعقائد الخاصة بالإنسان.

هذا هو توحيد المسيحية كما نعرفه، وكما نراه في التاريخ، فهو ليس محاولة لتحويل الله إلى فكرة سلبية غامضة أو إلى مجرد تلاوة لنفي خطأ، بل إلى حضور حقيقي دائم في حياة الإنسان وفي تاريخه لكي يقود الله نفسه طريق التقدم والنمو الإنساني، ولذلك يحرص هذا التوحيد على تأكيد أن الحياة بعد الموت بدون الله هي الجحيم بعينه، وأن ما يناله الإنسان على الأرض – مهما كان – لا يعادل حياة السماء؛ لأن السماء هي رؤية دائمة لله، وهي اشتراك في حياته.

ويؤكد توحيد المسيحية أن الله يسعى في النهاية إلى الاتحاد بالإنسان، وأن هذا الاتحاد يبدأ على الأرض ويكمل بمعرفة دائمة في السماء فيها يعاين الإنسان الله بشكل حقيقي لأن كل موانع الرؤيا تزول تماماً.

إذاً هو توحيد قائم على حقيقة أساسية، وهي أن الله دائم الإعلان عن نفسه لا يتأخر مطلقاً عن إقامة علاقة مع الإنسان، فهو إله التواضع والمحبة الذي يؤكد بتصرفاته أنه إله؛ لأنه غير ملوَّث بعُقَد الإنسان من تسلُّطٍ وكبرياء وعجرفة ونرجسية. ومع حرص هذا التوحيد على إعلان الله عن نفسه، إلاَّ أنه يؤكد ضرورة وجود الحرية، فهي شرط أساسي لقيام المحبة بين الله والإنسان. ولذلك ينشأ في ظل هذا التوحيد تقديس الحرية وتقديس كرامة الإنسان.

يا الله الواحد الذي أعلن عن نفسه وأعطانا هذه الكرامة الفائقة، كرامة حضورك في التاريخ، نسألك أن تهب لنا أن ندرك حقيقة إعلانك الدائم عن نفسك، لأن إدراك هذا الإعلان هو شفاء لنا من كل ما علق بنا من أدران وفساد. ولك المجد أيها الواحد وحده ...

طنطا – فبراير سنة ١٩٧٩م